(ISSN: 2959-5436) مجلة جامعة سومر للعلوم الانسانية (SUJHUS)
عدد خاص بوقائع المؤتمر العلمي الدولي الرابع للعلوم الانسانية والتربوية والنفسية الذي اقامته جامعة سومر للفترة من 7-8 نيسان 2025 /القسم الثاني, الصفحات 78-87

جدلية الماء عند الشاعر النابغة الذبياني

م.د. خالد رحيم بايش[1]*

[1]جامعة الشطرة، كلية التربية للبنات، ذي قار، العراق

الملخص:

ليس خافياً أن الماء هو الذي يكمن فيه سر الحياة أو سر الموت معاً ، من الماء تخرج الحياة ، قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ، وقال الله تعالى في آية أخرى ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ، فالماء من أهم رموز الحياة وضوحاً في ذهن الإنسان الجاهلي، فهو أساس الحياة ومقومها الرئيس ، ولكن هذا المقوم قد يكون موتاً ودماراً وخراباً في ظل السيول والطوفان، فتظهر جدلية هاتان الصورتان المتناقضتان جليتان في الشعر الجاهلي، فقد أكثر الشعراء من وصف الماء فهو عامل مهم من عوامل البداوة والترحال، فما كان الحلول بمكان أو الانتقال إلى آخر ألا بسبب الماء وفي سبيله.

وجميع تلك الجدلية وظفها النابغة الذبياني في قصائده التي راحت تعبر عن تلك الجدلية رثاءً ووصفاً وخيالاً ، حتى ظهرت قصائده معبرة عن واقعه وبيئته الجاهلية التي كانت تقدس الماء ، وتجعل منه رافداً للحياة مرة ورمزاً وملهماً في الرثاء والوصف والخيال مرة أخرى.

الكلمات المفتاحية: جدلية ، الماء ، الشاعر ، النابغة الذبياني.

The Dialectics of water according to the poet Al-Nabigha Al-Dhubyani

Lecturer Dr. Khaled Rahim Baish[1*]

[1]University of Al Shatra, College of Education for Girl, Thi Qar, Iraq

Abstract:

Water is one of the secrets of life, in addition to being a gift from God. It is a source of energy and an essential component of agriculture. However, water can sometimes be deadly in the form of floods and destructive storms, and it can also be a major conflict between countries that leads to wars.

Keywords: dialectic, water, poet, Al-Nabigha Al-Dhubyani.

المقدمة:

ليس خافياً أن الماء هو الذي يكمن فيه سر الحياة أو سر الموت معاً ، من الماء تخرج الحياة ، قال الله تعالى ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ ، وقال الله تعالى في آية أخرى ﴿**فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ ، فالماء من أهم رموز الحياة وضوحاً في ذهن الإنسان الجاهلي، فهو أساس الحياة ومقومها الرئيس ، ولكن هذا المقوم قد يكون موتاً ودماراً وخراباً في ظل السيول والطوفان، فتظهر جدلية هاتان الصورتان المتناقضتان جليتان في الشعر الجاهلي، فقد أكثر الشعراء من وصف الماء فهو عامل مهم من عوامل البداوة والترحال، فما كان الحلول بمكان أو الانتقال إلى آخر ألا بسبب الماء وفي سبيله ، ومن الممكن أن يكون الماء سبباً في نشوب الحروب أو يكون وجودهُ ذو قدسية ترتبط بمعتقد يؤمنون به، فهنالك

* **Email address: Khalid.nas2020@gmail.com**

شعوب قديمة قدست الماء، كالساميون الذين أنشأوا حولها الكثير من الأساطير، كما نصب البعض الآخر عندها أصناماً مثل هُبل وأساف ونائلة التي كانت بئر زمزم مطمور بينها ، وسرت هذه العقائد في ذهنية المجتمع الجاهلي حتى غرستْ في أذهانهم حقائق تتعلق بجدلية الموت والحياة وعلاقتهم بالماء ، فالإنسان الجاهلي قد صور الموت المخيف بصورة الماء، فامتزجت نظرة الحياة بالموت واختلطت وأصبحت تعني مصطلحاً واحداً ، هو الماء ؛ وهذا لم يأتِ من فراغ ، وإنما تعود هذه النظرة إلى موروث قديم ورثهُ الجاهليون عن أقوام سابقة قدست الماء وآمنتّ به ، كما لم يكتف الشعراء بهذه الصورة الجدلية للماء فقد طوروها لتمثل أدوات الحرب ومعداتها ، إذ وصفوا الجيش بالنهر والسيل ، ثم مزجوا الماء شعراً بعناصر الطبيعة الأخرى ، فقد ربطوا هذا العنصر الملازم بالرياح لعشق المطر للسحاب اللذان منفكا يفترقان حتى يرديان عطش الأرض ، ووسع الشاعر تلك الجدلية إلى البحر الذي يضمُ في داخلهِ تلك الكنوز الثمينة والدرر الجميلة، ويحمل على ظهرهِ تلك الأشرعة المعبرة عن الأمل مرة والغربة مرة أخرى كما أن الشاعر مزج رثاءهُ بصورة الماء فجعل من صفات الماء معبراً عن ذلك الرثاء الذي يشمل العواطف والانفعالات فيدعو مرة بالغيث ، يسقي قبر الحبيب ، ومرة أخرى يخاطب هذا الغيث ليمر بقبور أحبيتهِ ، ثم ينتقل الشاعر الجاهلي بهذهِ الجدلية إلى استخدام الماء في الوصف ، وهي من أبرز الأغراض الشعرية ، التي أخذت مساحة من الشعر الجاهلي، إذ أن الشاعر الجاهلي لقربهِ من الوديان والآبار والغدران وظفها معبراً عن هيامهِ بتلك الطبيعة الصامتة والحية ، إذ جعل منها وصفاً ظهرتْ فيه جمال تلك العراء .

وجميع تلك الجدلية وظفها النابغة الذبياني في قصائده التي راحت تعبر عن تلك الجدلية رثاءً ووصفاً وخيالاً ، حتى ظهرت قصائده معبرة عن واقعه وبيئته الجاهلية التي كانت تقدس الماء ، وتجعل منه رافداً للحياة مرة ورمزاً وملهماً في الرثاء والوصف والخيال مرة أخرى.

- **الماء / السحاب :**

تتبع الشعراء في العصر الجاهلي كل مفردات البيئة المائية ، وتمثل ذلك جلياً في وصفهم للسحاب ورسموا صوراً رائعة لمناظره وأشاروا إلى حركة الغيوم (السحاب) ووصفوا هطولها بالأمطار، ويقول أحد الباحثين في الشعر الجاهلي أنَّ أثر الصحراء هو أغنى الآداب بالسحاب والمطر ؛ لأنه تعبير عن الواقع وصوتاً للأمل[1] ، لذا يقول النابغة في وصف سحابة أمطرت على أرضٍ جرداء بوابل من المطر (من الطويل)[2] :

تَعاوَرَها الأَرواحُ يَنسِفنَ تُربَها وَكُلُّ مُلِثٍّ ذي أَهاضيبَ راعِدِ

قدَّم الشاعر صورة عن سحابة متراكمة مُحَّملة بالمطر والماء جاءت على أرضٍ يابسة وغمرتها بوابل من المطر ويقول في أبيات أُخرى من (الطويل)[3]:

وكلُّ مُلِثٍّ، مُكْفَهِرٍ سَحـــــابُهُ كَميشِ التّوالي، مُرْثَعِنّ الأسافلِ
إذا رَجَفَتْ فيهِ رَحىً مُرْجَحِنّـــةٌ تبعقَ ثجاجٌ ، غزيرُ الحوافـــلِ

أيضاً قدَّم الشاعر وصف مجموعة من السحاب المحَّمل بالماء والذي يُفرغ وابله على أراضٍ جرداء ، ولكن كانت صورة الشاعر مرتكزة على حركة تلك السحب وصبَّها المطر على الأرض . والمرجحنّة هي السحابة المستديرة الثقيلة.

- **الماء / والبحور :**

كثيراً ما أتى الشعراء في العصر الجاهلي في قصائدهم في مفردة البحر ، إذ نجد أنَّ البحر تارةً يكون قريناً للممدوح من خلال صفة الكرم والعطاء ، وتارة أخرى يكون معادلاً موضوعياً لهمومهم ، كما عبَّر عن ذلك أمرؤُ القيس ، وبعض الأحيان يصفون البحر من خلال وصف السفن التي تكون سائرة في عرضهِ ، وحتّى وصف الغوّاص الذي يبحث عن دُرَّة ثمينة في داخلهِ ، ومن تلك الأوصاف المتعلقة بالبحر أبيات النابغة الذبياني إذ يقول من (الوافر)[4]:

لَهُ بَحرٌ يُقَمِّصُ بِالعَدَولـــــي وَبِالخُلُجِ المُحَمَّلَةِ الثِقـــــالِ
مُضِرٌّ بِالقُصورِ يَذودُ عَنهـــا قَراقيرَ النَبيطِ إِلى التِـــــلالِ
وَهوبٌ لِلمُخَيَّسَةِ النَواجـــي عَلَيها القانِئَاتٌ مِنَ الرِحـــــالِ

إذ يقدم الشاعر صورة للبحر والتي جعلها معادلاً موضوعياً للحالة النفسية واللاشعورية التي يعيشها من خلال أهوال البحر الشديدة وهي صورة لبيئة الماء بصورة عامة.

- **الماء / الغزل :**

عرف الجاهليون الغزل في مقدمات قصائدهم ، إذ دفعتهم الحياة الجاهلية التي كانوا يعيشونها والبيئة التي دفعتهم إلى ركوب أبرز الأغراض الشعرية بما فيها الغزل، لذا يرى بعض الباحثين أنَّ شعراء العصر الجاهلي أكثروا من شعر الغزل في قصائدهم ، إذ صورَ الشعر الجاهلي بأنَّهُ قطعة ذات وجهين الأول يمثل شعر الغزل بكل عواطف الشاعر من وصل وهجر وغير ذلك ، أمَّا الوجه الآخر فكان يمثل بقية الأغراض الشعرية الأخرى[5] ، والنابغة الذبياني واحد من الشعراء الذين ورد الغزل في تضاعين قصائدهم ، ومن النصوص التي تمازجت فيها بعض مفردات البيئة المائية والغزل عند النابغة النص الآتي من (الكامل)[6].

قامَت تَراءى بَينَ سَجفَـــي كِلَّةٍ كَالشَمسِ يَـــومَ طُلوعِها بِالأَسعُدِ
أَو دُرَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غَوّاصُهـــــا بَهِجٌ مَتى يَرَهـــا يُهِلَّ وَيَسجُدِ
أَو دُمیَةٍ مِن مَرمَرٍ مَرفوعَـــةٍ بُنِيَت بِآجُرٍّ تُشـــــادُ وَقَرمَدِ
سَقَطَ النَصيفُ وَلَم تُرِد إِسقاطَـــهُ فَتَنَاوَلَتهُ وَاتَّقَتنـــــــا بِاليَدِ
تَجلو بِقادِمَتَي حَمـــــامَةِ أَيكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُهُ بِالإِثمِـــــدِ
كَالأُقحُوانِ غَداةَ غِبَّ سَمـــــائِهِ جَفَّت أَعاليهِ وَأَسفَلُهُ نَـــــدي
زَعَمَ الهُمامُ بِأَنَّ فاها بـــــارِدٌ عَذبٌ مُقَبَّلُهُ شَهِيُّ المَـــورِدِ

يقدم الشاعر صورة لبشرتها المتجردة والتي ساورت ببياضها الناصع صفرة وحمرة ، ووصفها بالدرة الصافية التي أخرجها الخواص والتي يبتهج بها والتمثال المنحوت من المرمر ثم يصف فمها بالبرود والندى وكلها صور تتضمن مفردات بيئة مائية (الدرة ـ الخواص ـ الندى ـ البارد).

- **الماء / الرياح :**

غالباً ما تكون الرياح هي القرين الملازم للمطر وكذلك للسحاب، ولذا كانت الرياح التي تأتي بالغيث تُسمى عندهم بالمبشراتِ ، وكثرة عند العرب في الجاهلية أسماء الرياح ريح الصبا وريح الشمال وغيرها ، ولذا نجد في كثير من نصوص الشعراء ذكراً للرياح ومن هؤلاء الشعراء هو النابغة الذبياني إذْ يقول من (الوافر)[7]

تَعاوَرَهُنَّ صَرفُ الدَهرِ حَتّى عَفونَ وَكُلُّ مُنهَمِرٍ مُرِنِّ

يصف الشاعر كيف تسوق الريح القوية السحاب إلى أن تسقط حمولتها من المطر وقد وصف تلك السحب بالانهمار، أي سقوط المطر بشدّة من تلك الغيوم.

- **الماء /البحر /الغواص / الدُرّة :**

لقد وصف الشعراء في العصر الجاهلي البحر وما يخرج منه من الدرر وكذلك وصفو السفن والغواصين الذين ينزلون إلى قاع البحر للبحث عن الدرر ومن هؤلاء النابغة الذبياني ، أذ يقول من (الكامل)[8]:

أَو دُرَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غَوّاصُها بَهِجٌ مَتى يَرَها يُهِلَّ وَيَسجُدِ

إذ يصف الشاعر فرحة الغواص وهو يلتقط الدرة ويكاد لشدة فرحة يهلل ويسجد للحصول عليها.

كما نلاحظ النابغة الذبياني يبدع في وصفه مرة أذى ، إذ يقول :

أقام برجْلَة البَقَّار شهـــــراً وشام الغَيثَ من كثب فراحـــاً

فباتَ كأنه قـــــاضي نذورٍ شرًى لله ينتظر الصَّباحَـــا[9]

وهذهِ الأبيات في وصف رحلة الصيد التي دامت شهراً وهو ينتظر، ذلك الغيث فرحاً فيصف انتظارهُ له بمن نذر كي يحصل على مناه فرسم صورة رائعة لمن ينتظر المطر ذلك الغيث الذي ينتظرهُ طويلاً، وعلى هذا النحو يقول أيضاً في وصفِ تغزلهِ بنعم وهو يعاتبها على ذلك الهجران قائلاً:

نُبِّئتُ نُعماً عَلى الهِجرانِ عاتِبَةً سَقياً وَرَعياً لِذاكَ العاتِبِ الزاري[10]

فيدعو بسقي للعاتبة وهي نعم، وكثيراً ما يستخدم الشعراء الجاهلين لفظة سقياً دعاءً منهم لشخص الغالي والمحبوب لديهم.

- **الماء / الوصف :**

الوصف من أبرز الأغراض الشعرية التي أخذت مساحة من الشعر الجاهلي، إذ جال الشاعر الجاهلي في الصحراء والوديان والراوبي ؛ فنظر إلى الغدران والآبار فاستثارت فكرة، فوصفها وصفاً دقيقاً، وهذا ما عبَّر عن هيام الشاعر الجاهلي بالطبيعة الصامتة والحية؛ لأنَّ الطبيعة الحية ووصفها يُعدُّ وصفاً لمظاهر الطبيعة الصامتة التي تعرَّض لها الشعراء في العصر الجاهلي[11]، والنابغة الذبياني من الشعراء الذين كان لهم دورٌ بارز في وصف مظاهر الطبيعة المائية الصامتة إذ يقول[12]: (الطويل)

والخيلَ تمزَعُ غرباً في أعِنَّتها كالطَّيرِ تنجو من الشّؤبوبِ ذي البَـــرَدِ

إذ يصف الشاعر الفرس في حركتها نحو الغرب في شدتها مشبهاً إيّاها بالطير الذي يفر من الشُّؤبوب أي البرق اللامع والذي يكون مصحوباً بالبرد، وهي صورة مركبة من عناصر الطبيعة الحية والصامتة الحصان الخيل والمطر والطير.

وفي صورة أخرى مشابهة لصورة البيت الأول ، إذ يصف طريدة من الطرائد، وهي ثور في فلاة قليلة الماء وتسير تحت سحابة أمطرته بالبرد ، فيقول[13] : (البسيط)

مِنْ وَحشِ وَجْرَةَ، مَوْشِيٍّ أَكارِعُهُ طاوي المصيرِ، كسيفِ الصَّيقل الفَرَدِ
سَرتْ عليهِ، مِنَ الجَوزاءِ، ساريَةٌ تَزجِي الشَّمَالُ عليهِ جــامدَ البَرَدِ
فارتاعَ مِنْ صَوتِ كَلَّابٍ، فَبَاتَ لَهُ طَوعَ الشَّوَامتِ منْ خوفٍ ومنْ صَرَدِ

- **الماء /المدح :**

المدح من أبرز فنون الشعر، ((يقوم على تعداد مناقب الإنسان الحي ، وإظهار مناقبه وإشاعة محامده وفعاله التي خلقها الله تبارك وتعالى بالفطرة والتي اكتسبها اكتساباً))[14]، ولقد أجاد شعراء العصر الجاهلي في فن المديح ، ومن هؤلاء الشعراء النابغة الذبياني ، ونتيجة لتجواله على الحواضر لاسيما حضارة المناذرة والنعمان بن المنذر والتي سيقت مدائح النابغة فيه وكانت قصائد رائعة ، وقد مزج شعراء العصر الجاهلي المدح بالبيئة المائية أثناء مدح الشخصيات، إذ يقول النابغة من (الوافر)[15]:

وَأَنْتَ الغَيْثُ يَنْفَعُ ما يَلِيهِ وأنتَ السُّمُّ خَالَطَهُ البُرونُ

لا يخفى على قارئ البيت الشعري أنَّ النابغة الذبياني لا يُخفي الكرم الذي عليه الممدوح ، فيصفه بالغيث الذي يَعم الجميع أي أنَّ كل إنسان يعرف الممدوح سينال نصيبه من الممدوح ، وهي صورة رائعة مزج فيها الشاعر بين المدح والماء متمثلاً بالمطر (الغيث) أي أنَّه شبّه الممدوح وسعة كرمه وشموله لكل الناس الذين من حوله بالغيث الذي ينزل من السماء والذي يعم على الجميع ، وهي صورة بلاغية قائمة على التشبيه ، أجاد الشاعر من خلالها مدح صاحبه.

ويقول الشاعر النابغة الذبياني مادحاً جود النعمان ووصفه كالفرات قائلاً :

فَما الفُراتُ إذا هَبَّ الرياحُ لـه تَرمي غواربُه العِبرَينِ بــالزَّبَدِ
يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتَرعٍ، لَجِــبٍ فيه رِكــامٌ مِنَ اليَنبوتِ وَالخَضَدِ

فظهرت صورة الفرات وغواربه التي يقصد بها الشاعر أمواجه العالية، وذلك الزبد الكثيف، وما كل ذلك الإمداد من النعمان فوصفهُ بقوة ماء الفرات وشدة هديره.

وهذا ما فسرهُ البيت اللاحق الذي وصف ذلك العطاء بأجود من سيب النافلة والمقصود به العطاء الزائد قائلاً[16] :

يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُترَعٍ، لَجِــبٍ فيهِ رِكامٌ مِنَ اليَنبوتِ وَالخَضَدِ
يَظَلُّ مِن خَوفِهِ، المَلاَّحُ مُعتَصِماً بِالخَيزُرانَةِ، بَعدَ الأَينِ وَالنَّجَدِ
يَوماً بِأَجوَدَ مِنهُ سَيبَ نــافِلَةٍ وَلا يَحولُ عَطاءُ اليَومِ دونَ غَدِ .

إذ نرى أنَّ الشاعر قدَّم صورة مزج فيها بين الممدوح وصفاتهِ وبين دلالات الماء المتمثلة بالطبيعة والأنهار (الفرات) ، إذ يرى الفرات وهيجانه من خلال هبوب الريح التي ترمي القوارب بالزبد وخوف الملاح من حركة الأمواج ، فيعمد إلى الاعتصام بصواري السفينة (الخيزرانة) ليس بأجود من الممدوح وعطائهَ.

- **الماء / السفينة :**

شبَّهَ كثير من الشعراء رحلة الظعن بمسير السفين ، لا سيما وهي تشق طريقها في عرض البحر، وهو توظيف لبيئة الماء وما يعلق بها في أشعارهم ؛ انطلاقاً من مفردات البيئة التي يعيشون فيها ، والنابغة واحد من الشعراء الذين وظفوا ذلك الشيء ، إذ يقول من (الوافر)[17]:

أصاح ترى وأنت إذا بصيرُ حمولَ الحيِّ يَرفَعُهَا الوجينُ
كأَنَّ حدوجةٌ في الآلِ ظهراً إذا أَفرعَنَ مِنْ نشرٍ سفينُ

إذ وظَّفَ الشاعر التلازم والاقتران بين حركة السفين في عرض البحر وحركة رحلة الظعن لوجود عدّة عوامل تجعلهما في إطار التلازم والتشابه.

ويقرن الشاعر النابغة الذبياني بين صفتي الشجاعة والكرم والتي لا يمكن وصفها إلا بالبحر إذ يقول (من البسيط)[18]:

ينزعنَ إمَّةَ أقوامٍ لذي كرم بحرٌ يفيضُ على العافينَ إذْ عدموا

فالشاعر قدم صورة قرن فيها بين كرم وعطاء الممدوح مع البحر وبذلك مثَّل البحر عنصر الحركة في هذهِ الصورة الشعرية.

ولهُ صورة أُخرى يربط فيها بين الممدوح والبحر والخليج بما فيها من دلائل وشواهد دالة على معاني الكرم والجود حيث يقول من (الوافر)[19] :

لَهُ بَحرٌ يُقَمِّصُ بِالعَدَولـــي وَبِالخُلْجِ المُحَمَّلَةِ الثِقـــالِ
مُضِرٌّ بِالقُصورِ يَذودُ عَنهـا قَراقيرَ النَبيطِ إلـــى التِلالِ
وَهوبٌ لِلمُخَيَّسَةِ النَواجـي عَلَيها القائِناتُ مِـنَ الرِحالِ .

وفي صورة أخرى يمزج الشاعر بين الممدوح ودلالات مظاهر الطبيعة المتمثلة بالأنهار وطبيعتها إذ يقول من (البسيط)[20]:

فما الفُراتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لهُ تَرمـــــــي غواربَّه العِبرَينِ بالزَّبَدِ

- **الرثاء:**

اتخذ الشعراء الموت حافزا للتعبير عّما يدور في دواخلهم تجاهَهُ، وصوروا من خلال تلك العواطف والانفعالات الشحنات العاطفية وهو ما يُعبَّر عنه عزاءً ومشاركة.

والرثاء هو الوجه الثاني للمدح أي أنَّ المدح هو بيان فضائل الممدوح وكذلك الرثاء ينطبق عليه نفس المفهوم إلاَّ أنَّ الممدوح هو شخصٌ قد فارق الحياة، لذا عرَّف ابن رشيق القيرواني الرثاء بقوله ((وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلاَّ أنْ يُخلط بالرثاء شيء يدل على أنَّهُ المقصود به مَيِّتْ، مثل: (كان) أو (عندما كيت وكيت)، وما يُشاكل هذا ليعلم أَنَّهُ ميتاً))[21]، إذن الفارق بين المدح والرثاء هو الموت، فهو لا يختلف عن المدح سوى التعبير عن العزاء و اللوعة والفقد التي تنتاب الشاعر لفقد عزيز عليه[22].

لذا نلاحظ أنَّ النابغة الذبياني يُشرك عنصر مهم من عناصر الطبيعة وهو الماء في رثائه للنعمان بن الحارث بن أبي شمر الغساني حيث يقول من (الطويل)[23]:

دَعاكَ الهَوى , وَاِستَجهَلَتكَ المَنــازِلُ وَكَيفَ تَصــابي المَرءَ, وَالشَيبُ شامِلُ؟
وَقَفتُ بِرَبعِ الدارِ, قَد غَيَّرَ البِلـــى مَعـــارِفَها , وَالسارِياتُ الهَواطِلُ
فَلا يَهنَئِ الأَعداءَ مَصرَعُ مَلكِهِـــم وَمـــــا عَتَقَت مِنهُ تَميمٌ وَوائِلُ
وَكانَت لَهُم رِبعِيَّةٌ يَحذَرونَهـــا إِذا خَضخَضَت مـــاءَ السَماءِ القَبائِلُ
سَقى الغَيثُ قَبراً بَينَ بُصرى وَجـاسِمٍ بِغَيثٍ مِنَ الوَسمِيِّ قَطرٌ وَوابِـــلُ
وَلا زالَ رَيحانٌ وَمِسكٌ وَعَنبَـــرٌ عَلى مُنتَهاهُ ديمَةٌ ثُمَّ هاطِـــــلُ .

نلاحظ أنَّ الشاعر يستسقي الغيث لقبر المرثي، حيث مزج الحزن بالماء (المطر) والإشارة إلى المكان (بصرى وجاسم) وهما موضعان في الشام يرسم لوحة لصورة المرثي التي تشاركت فيها عناصر الطبيعة الأمكنة والماء، وسقيا القبر قديمة عند العرب ، وتعني إعادة الحياة إلى صاحب القبر؛ لأن الماء في الذاكرة العربية القديمة هو الحياة والبعث والنقاء[23].

- **الماء / الفخر :**

الفخر من الأغراض الشعرية التي طرقها الشاعر الجاهلي بقوة انطلاقاً من الحياة البدوية الصحراوية والتي ترتكز على القبيلة والمنازعات والحروب والإغارة على المراعي وموارد الماء لذا يكون من الطبيعي أن يفخر الشاعر بقومه، وخير دليل على ذلك معلقة الشاعر الجاهلي عمرو ابن كلثوم التي فخر بيها بقومه بني تغلب والتي ذاع صيتها، والنابغة من الشعراء الذين فخروا كثيراً بقومه لاسيما حين دافع قومه عن مائهِم وأذادوا الأعداء عن الوادي الذي يكثر فيه الماء الذي يحرسونه إذ يقول من (الطويل)[24]:

وَهُم مَنَعوا وادي القُرى مِن عَدوِّهِم بِجَمعٍ مُبيرٍ لِلعَدوِّ المُكـــــاثِرِ .

إذ يصور الشاعر من خلال هذا البيت الشعري كيف أن قومه منعوا الأعداء من الوصول إلى الماء المتجمع في هذا الوادي ، وهو بذلك يفخر بقومهِ.

وجاء في رثاءهِ ترحماً للنعمان بن الحارث داعياً له قائلا:

سَقى الغَيثُ قَبراً بَينَ بُصرى وَجاسِمٍ بِغَيثٍ , مِـنَ الوَسمِيِّ , قَطرٌ وَوابِلُ
وَلا زالَ رَيحانٌ وَمِسكٌ وَعَنبَـرٌ عَلـى مُنتَهاهُ, ديمَةٌ ثُمَّ هاطِلُ [25] .

فمزج جدلية الرحمة بسقي ذلك القبرُ غيثاً ووابلاً داعيا منهُ كما يفعل الشعراء الجاهلين عندما يذكرون أو يقفون على قبر عزيزاً فقدوه.

- **الماء / والحياة :**

كما تحدث الشاعر الجاهلي عن الموت ومفرداته من خلال نصوصه الشعرية كذلك أفرد مساحة مهمة للحديث عن أثر الماء في حياتهِ وذكر مفردات تلك الحياة وارتباطها بالماء نظراً للصلة الوثيقة بينهما، فأستخدم أسلوب الرمز لمفردة

الحياة من خلال الماء وكذلك صرح من خلال نصوصه الشعرية لهذه العلاقة، والنابغة الذبياني واحد من أبرز الشعراء في العصر الجاهلي الذين عبروا عن جدلية الحياة والماء من خلال نصوصه الشعرية إذ يقول : (من الطويل)[26] :

سَقى الغَيثُ قَبراً بَينَ بُصرى وَجــاسِمٍ ... بِغَيثٍ مِنَ الوَسمِيِّ قَطرٌ وَوابِــلُ
وَلا زالَ رَيحانٌ وَمِسكٌ وَعَنبَــرٌ ... عَلى مُنتَهاهُ ديمَةٌ ثُمَّ هــاطِلُ
وَيُنبِتُ حَوذاناً وَعَوفاً مُنَــوِّراً ... سَأُتبِعُهُ مِن خَيرِ مــا قالَ قائِلُ

يعمد الشاعر إلى الدعاء بسقياً القبور، وهو معنى يكثر أيضاً عند الوقوف على الأطلال إذ يعمد الشعراء باستنزال الغيث للطلل بعثاً للحياة فيهِ، وكذلك الشاعر هنا يستسقي بالمطر للقبر الذي مد افقه بين البصرة وجاسم بغيث يكون وابلاً وقوياً؛ ليوظف المطر بوصفهِ رمزاً للحياة والبعث ليشير إلى نزول الرحمة على صاحب القبر وهنا تظهر واضحة وجلية جدلية الحياة وعلاقتها بالماء من خلال المطر.

الماء يعني الحياة عند العربي , وفي الاساطير القديمة يرتبط الماء بالتكوين ونشأة الحياة واعادة الخصوبة الى الأرض , لذلك كان الاتجاه الى المطر يعني الأمنية التي تتعلق بالحياة , ولا تبدو هذه الأمنية في أشد حالاتها الحاحا الا أمام الموت , لذا فالشاعر يستمطر السماء على قبور احبائه [27] .

- **الماء / الموت :**

مسألة الموت وارتباطها بالماء عند الشاعر الجاهلي شغلت مساحة كبيرة في نصوصه ، إذ علم الشاعر الجاهلي أنَّ الموت مسألة حتمية لابد من وروده طال عمر الإنسان أم قصر، ولذا كان الماء بكل رموزهِ من شحة المطر والبيئة الصحراوية القاحلة مثلت هاجساً مخيفاً يُذَكِّر الشاعر الجاهلي بالموت عند فقد مفردات الماء ، وكل ذلك انطلاقاً من واقعه الذي يفرض عليه ذلك ، وفي ذلك يقول النابغة الذبياني (من الوافر)[28]:

أَمِن ظَلّامَةِ الدِمَنُ البَوالي ... بِمُرفَضِّ الحُبَيِّ إلى وُعالِ
فَأَمواهِ الدَنا فَعُوَيرِضاتٍ ... دَوارِسَ بَعدَ أَحياءٍ حِلالِ
تَأَبَّدَ لا تَرى إلّا صُواراً ... بِمَرقومٍ عَلَيهِ العَهدُ خالِ
تَعاوَرَها السَواري وَالغَــوادي ... وَما تُذري الرِياحُ مِنَ الرِمــالِ

قدَّم الشاعر صورةً عبر فيها على فداحت صنع الموت وما يفعله وما يخلفه في الإنسان والطبيعة حيث تحولت تلك الرياض النظرة الزاهية بعد أن غادرتها مظاهر الحياة المتمثلة بالماء (المطر) إلى دمنٍ خوالي دارسة مندثرةً تذروها الرياح وهو مشهد حسي تصوري يبين فيه الشاعر جدلية علاقة الحياة والموت بالماء.

لقد امتاز الشعر الجاهلي بالعديد من الخصائص التي ظهرت في شعر أغلب شعرائه , والنابغة الذبياني من الشعراء المعروفين في الشعر الجاهلي , لذا فإن شعره يمتاز بأغلب ما امتاز به الشعر الجاهلي , وتبقى لشاعريته من الخصوصية ما تفرده ببعض الخصائص [29] .

الخاتمة

إنَّ الماء من المواضيع المهمة والمفردات الرئيسة التي تناولها الشعراء في العصر الجاهلي ، وسبب ذلك يعود إلى قدسية الماء الذي يعود له اصل الحياة، إذ أنَّ معظم الصور الشعرية التي تناولت الماء ومفرداته استمدت مادتها من البيئة الاجتماعية للشاعر الجاهلي، فقد استطاعت هذه الصورة الشعرية أن تثبت تلك الجدلية الراسخة في ذهن الإنسان الجاهلي، الذي لم يكن بمعزل عن المعتقدات والأفكار والعادات التي وجدت عند الأمم السابقة، بل اعتقد وآمن بها ، ما يدعم فكرة اللاوعي الجمعي، وبالتالي اخذ يوظف تلك القدسية مرة في الممدوح ، فقد يجعل منه البحر والرافد والفرات والسحاب الممطر، إيماناً بعطاء وشجاعة وسخاء الممدوح ، ولأهمية الماء في حياة الشاعر الجاهلي كون الحياة مرتبطة به ولكونه جوهرة نادرة، استطاع الشاعر الجاهلي أنْ يوظف هذه الجوهرة استنطاقاً فنياً، مستعملاً فنون البديع من تشبيه واستعارة ، ليوظف من خلالها جدلية الماء لوصف الممدوحِ، ولم يكتفي بهذا الغرض فلعله يمزج رثاءه بذلك الدعاء، ليستخدم مفردات الغيث والسقي والوابل وغيرها تيمناً منه، بأن امتزاج تلك الجوهرة الثمينة بقبر ذلك الفقيد هو رحمة وخلود له، كما ابدع الشاعر الجاهلي بأن يجعل من صفات الماء وصفاً رائعاً لحروبه وأدواته أيضاً، فوصفها بالسيل المنهمر والزبد لكثرة الخير والسلاح، كما ركز الشاعر الجاهلي في شعره على المنهج الأسطوري من اجل الكشف عن صلة تلك الجدلية بالطقوس والشعائر ، التي استمدها من الأقوام السابقة وقد لاحظنا ذلك جلياً في استخدامه لمفردات الماء في فرحه وأحزانه، وهذا ما تجلى جلياً في أشعار النابغة الذبياني، فنجده في قصائده ـ شأنه شأن الشعراء الجاهليين ـ قد وظف موضوعة الماء شعراً ؛ لأيمانه وقدسيته ، فقد ربطه مرة بالموت وهي عبارة عن ميثولوجيه، ارتبطت بفكر الشاعر الجاهلي، الذي جعل من الماء مادة مكونة لقوالب شعره ، معبرةً عن حزنه وفرحه ، مجسداً علاقة الشاعر الجاهلي ببيئته التي عرف فيها الأودية والآبار والغدران ، كما لاحظنا استخدامه لهذه الجدلية في رثاءه لأكثر أصدقاءه مثل النعمان بن الحارث مستخدماً لفظة الغيث والقطر الذي وظفها رثاءً في شعره ، وأكد أيضاً في تلك الجدلية للكثير من قصائد الوصف لديه ، وهذا ما ظهر جلياً وهو يصف رحلة الصيد وتلك الصحراء الحية الصامتة بمفرداتها ، والتي وظفها في قصائده الوصفية ، ليعرج بعدها ليذكر لنا الكثير من المفردات التي تعطي انطباعاً عن قدسية الماء لدى الشاعر ، إذ يجعل فيه ذلك الماء الحاوي للكنوز والدرر، والحامل للسفن المارة عليه.

الهوامش :

(1) يُنظر : أثر الصحراء في الشعر الجاهلي ، سعدي ضناوي : ٤٣ ـ ٤٤.
(2) ديوان النابغة الذبياني : ١٤٧.
(3) ديوان النابغة الذبياني : 150.
(4) ديوان النابغة الذبياني : ٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(5) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ، فيصل شكري : ١٠٩.
(6) ديوان النابغة : ١٠٧.
(7) ديوان النابغة : ١٢٢.
(8) ديوان النابغة : ١٨٤.
(9) ديوان النابغة : ٢٠١.
(10) ديوان النابغة : ٢٠٧.
(11) يُنظر : شعر الطبيعة في العصر الجاهلي، سيد نوفل : ٨٨.
(12) ديوانه النابغة الذبياني : ٢٣.
(13) ديوان النابغة : ٨٨.
(14) الأدب الجاهلي قضاياه وفنونه ، غازي ظلمات وعرفان الأشقر : ١٦٠ .
(15) ديوان النابغة الذبياني : ٢٢٣.
(16) ديوان النابغة : ٣٩.

(17) ديوان النابغة الذبياني : ٢٦٣.
(18) ديوان النابغة : ٧١.
(19) ديوانه النابغة :٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(20) ديوان النابغة : ٢٦.
(21) العمدة : ابن رشيق : ١٥٣/٢.
(22) تاريخ الأدب العربي ، د. شوقي ضيف : ١٣٢.
(23) ديوان النابغة : 1161/3.
(24) المطر في الشعر الجاهلي ، د. أنور أبو سويلم : ٨٢.
(25) ديوان النابغة : ٩٩.
(26) ديوان النابغة : ٢٢٣.
(27) ينظر: الاسطورة عند العرب في الجاهلية , د . حسين الحاج حسن : 231.
(28) ديوان النابغة : ١٩٠.
(29) ينظر: الأدب العربي بين الجاهلية والسلام , د . عبد الحميد محمود المسلوت : 112 .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أثر الصحراء في الشعر الجاهلي : سعدي ضناوي ، دار الفكر ، بيروت ، ط1 ، 1943م.
- الأدب الجاهلي قضاياه وفنونه : غازي ظليمان و عرفان الأشقر ، دار الفكر ، دمشق ، ط1 ، 2002م.
- الأدب العربي بين الجاهلية والاسلام , د . عبد الحميد محمود المسلوت , منشورات الجامعة الليبية كلية الآداب جميع الحقوق محفوظة , ط1 , 1983 م .
- الأسطورة عند العرب في الجاهلية , د . حسين الحاج حسن , المؤسسة الجامعية , بيروت , ط1 , 1988 م .
- تاريخ الأدب العربي : شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، 1988م.
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام : فيصل شكري ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 2002م.
- ديوان النابغة الذبياني : د. علي بو ملحم ، بيروت ـ لبنان ، ط1 ، 2001م.
- شعر الطبيعة في العصر الجاهلي : سيد نوفل ، تحقيق كمال مصطفى ، ط7 ، القاهرة ، 1978م.
- العمدة : ابن رشيق القيرواني ، دار الجبل ، بيروت ، ط5 ، 1981م.
- المطر في الشعر الجاهلي ، د. أنور أبو سويلم ، دار عمار للنشر والتوزيع ، عمان ، 1987م.